المفارقة بين التملك والكينونة
عند إريك فروم

د. محمد على محمد خضر
دكتوراه في الفلسفة الحديثة والمعاصرة
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية
معلم الفلسفة بإدارة المنتزه التعليمية

إريك فروم (حياته ونشأته):

إريك بينشاس فروم

عالم نفس وفيلسوف إنساني من أصول ألمانية، ولد في عائلة يهودية أرثوذكسية متدينة في ٢٣ مارس ١٩٠٠ بمدينة فرانكفورت الألمانية ثم انتقل إلى مدينة هايدلبرج حيث بدأ دراسة القانون قبل أن ينتقل إلى السوسيولوجيا ليصبح التلميذ المباشر للسوسيولوجي الألماني المشهور الفريد فيبر Alfred Weber، حصل فروم على الدكتوراه في الفلسفة، ثم تفرغ للتحليل النفسي على يد المحللة النفسية الألمانية المعروفة فريدا رايخمان، وبعدها على يد فيلهلم فيتنبرج بمدينة ميونخ.

تزوج سنة ١٩٢٦ بأستاذته رايخمان، وخرج في السنة نفسها من الدين اليهودي لاعتبارات شخصية.

اضطر فروم إلى مغادرة ألمانيا بعد وصول النازية للحكم سنة ١٩٣٣، وهي السنة التي قام فيها بالاعتراض على بعض المعتقدات الراسخة في نظرية التحليل النفسي عند فرويد مثل "نظرية الغرائز الفرويدية التي استعاض عنها بنظرية العلاقة النمطية"، وهو التصرف الذي لاقي اعتراضًا شديدًا من " لوفينتال" LOEWENTHAL وماكس هوركها يمر HORKHEIMER وهربرت ماركوزه H. MARCUSE وتيودور ادورنو ADORNO لينتهي المطاف بعزل فروم من مدرسة فرانكفورت سنة ١٩٣٩ على الرغم من التزام العمل طوال الحياة الذي كان قد وقعه مع هذه المدرسة.

هاجر فروم إلى الولايات المتحدة في سنة ١٩٣٤، وحصل على الجنسية الأمريكية في سنة ١٩٤٠ واشتغل هناك كمحلل نفسي وأستاذ محاضر في كليات مختلفة، ومنها على الخصوص المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي NEW SCHOOL FOR SOCIAL RESEARCH، وفي سنة ١٩٥٠ اضطر فروم للرحيل عن الولايات المتحدة الأمريكية والاستقرار بالمكسيك نظرا لمرض زوجته، ولكنه كان يعود بانتظام إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليلقي محاضراته على الرغم من التزاماته على الجانب الآخر بالتدريس في معاهد مكيسيكية، وعلي الرغم من مقامه الطويل في الولايات المتحدة الأمريكية، ونشره الكثير من الكتب بها وتأثيره في الحقل السياسي لها، الا أن فروم لم يعرف تلك الشهرة النادرة التي عرف بها هناك إلا سنة ١٩٦٥ عندما التزم موقفا أخلاقيا ضد حرب فيتنام، ووقف من هذه الحرب موقف المعارضة الصريحة.

وفي ١٩٦٦ أصيب فروم بوعكة صحية لازمته لعده سنوات وفي ١٩٦٩ وسافر إلى سويسرا للعلاج لينشر في سنة ١٩٧٦ أهم وآخر كتاب له والذي هو موضوع بحثنا "الامتلاك أو الوجود"[*] To have or to be.

وقد توفي فروم إثر نوبة قلبية أثناء وجوده للعلاج في سويسرا، ودفن هناك بمدينة بلينزونا BELLINZONA في عام ١٩٨٠.

ومن أشهر أعماله:

١- الهروب من الحرية ESCAPE FROM FREEDOM والذي صدر لأول مرة في الولايات المتحدة سنة ١٩٤١، ثم صدرت بعد ذلك الطبعة البريطانية من الكتاب سنة ١٩٤٢ وتحمل عنوان "الخوف من الحرية FEAR OF FREEDOM، وهذا الكتاب يركز على دور العوامل السيكولوجية في كل السيرورة الاجتماعية، كما يحتوي على خلافات جوهرية مع مفاهيم فرويد ونظرته التحليلية.

٢- التحليل النفسي والدين ١٩٥٠.

٣- اللغة المنسية (مدخل إلى فهم الاحلام والقصص الخيالية والأساطير) ١٩٥١.

٤- الإنسان من أجل ذاته (بحث في سيكولوجية الأخلاق).

٥- المجتمع السوي ١٩٥٥ THE SANE SOCIETY.

٦- أزمة التحليل النفسي (مقالات عن فرويد وماركس وعلم النفس الاجتماعي).

٧- مفهوم الإنسان عند ماركس.

٨- فن الحب THE ART OF LOVING.

٩- تشريح نزوع الإنسان إلى التدمير ١٩٧٣.

THE ANATOMY OF HUMAN DESTRUCTIVENESS

وفيه يقدم تحليلا موسعا لقضايا مثل السادية، والماسوشية، والنزعة التدميرية للإنسان، وقدرة الإنسان على التدمير، ونرجسيته، وتعلقه بعلاقة محرمة.

١٠- الامتلاك أو الوجود ١٩٧٦ To have or to be

والذي سنتناول الأفكار الاساسية فيه بمزيد من الشرح والتحليل والاستفاضة .

---

* هذا الكتاب تمت ترجمته إلى اللغة العربية ضمن سلسلة عالم المعرفة التي تصدر في الكويت العدد ١٩٨٩/١٤٠ بعنوان الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة وتقديم لطفي فطيم.

** عنوان الكتاب يشبه عنوان مؤلفين آخرين مثل كتاب الوجود والامتلاك لجابريل مارسيل ١٩٥٤، والامتلاك والوجود تأليف بالتهازر شينيهيلين ١٩٦٩، والكتب الثلاثة ركزت على النزعة الإنسانية مع اختلاف المعالجات فيما بينهم.

من التملك إلى الكينونة

هل هناك إشكالية أو مفارقة بين الوجود والملك ؟

هل هناك صراع أو تطابق بين الوجود والملك ؟

هل الإنسان مخلوق ليملك ام ليكون ؟

وهل الكينونة تعني عدم التملك من أجل أن يتحقق الوجود الحقيقي للانسان ؟

وهل يتعارض التملك مع الوجود ؟

هذه أسئلة كلها مهمة تحتاج منا إلى أجوبة شافية عنها.

في الحقيقة هناك مفارقات شديدة الوضوح في تصور فروم بين مفهومي التملك والكينونة، وبين العيش والاقتصاد، وبين التقنية المادية والقابلية المتأصلة في الطبيعة لتعزيز الحياة، وبين الحرية الإنسانية والخوف من الحرية، والرغبة المتزايدة في الهروب منها ٠

وسوف نحاول توضيح كل هذه المفارقات من خلال تحليل العلاقات المتأزمة والمتداخلة بين التملك والكينونة، أو بعبارة أخري بين ملكية الإنسان ووجوده.

لقد كتبت آلاف من الكتب الفلسفية في موضوع الكينونة، كما أن البحث في ماهية الوجود كان واحدا من أهم مسائل الفلسفة الغربية، أما فروم فيطرح الأمر من وجهة النظر الأنثروبولوجية والسيكولوجية، فهو لا ينظر إلى الكينونة على أنها الصيرورة والتي تتضمن التغير مثل هيرقليطس Heracletus وهيجل Hegel، ولا علي أنها جوهر دائم لايتغير ولا يرتبط بزمان كمانادي بارمنيدس وأفلاطون(١).

وإنما ينظر إلى الموضوع من زاوية مختلفة تماما؛ التملك كما هو معروف للجميع يعد من الوظائف الطبيعية لحياتنا، فمن أجل أن نعيش، يجب أن نمتلك أشياءً فضلا عن أننا يجب أن نمتلك أشياء لنستمتع بها، وفي حضارة يكون هدفها الأسمي هو التملك، وفيها يمكن الحديث عن شخص يساوي مليون دولارًا، يبدو وكأن التملك جوهر الكينونة، وأن من لا يمتلك شيئا لا يساوي شيئًا(٢)، غير أن قيمة أي شخص ليست فيما يملكه، ولكن فيما يكونه La valeur d’une personne ce n'ai pas dans ce que elle ,mais dans ce que elle est

(١) اريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر ترجمة سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٤٠، ١٩٨٩ ص٤٤

(٢) اريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر مرجع سابق ص ٣٥

وهنا تكمن المفارقة، ماالذي يحدد قيمة الإنسان التملك أم الكينونة ؟

واذا كانت الكينونة هي أساس القيمة، فهل معني ذلك أن يزهد الإنسان في كل ماحوله، ويترفع عن الامتلاك، في حضارة وثقافة قائمة أصلاً على التملك؟ يبدو أن الجواب شائك، ويحمل ألغام كثيرة، ومفارقات ليس لها حل شافي، إن التملك ليس مشكلة في حد ذاته، لأنه ليس معنى أن يحيا الإنسان، وأن تتحقق كينونته أن يتم تجريده من كل مايملك.

ولكن تكمن المشكلة الحقيقية فيما يمكن أن نسميه المبالغة في شهوة التملك، وتكريس الوجود كله في التملك، وحصر الحياة كلها في هذه المنطقة دون غيرها، المشكلة تكمن في الربط الشرطي الخاطيء بين الكينونة والتملك، وحصر الوجود في الملك، واعتباره نتيجة طبيعية له.

هذا الاعتقاد قد أضر بكينونة الإنسان، وخطف الإنسان من ذاته، وأبعده شيئا فشيئا عن المنابع الحقيقية للإنسانية، ما جعله ينأى عن آدميته، ويصبح جزءًا من الأشياء من حوله، مما أورثه القلق والشك المتزايد في آدميته وجدوى وجوده٠

والسؤال هو هل هناك فارق بين الكينونة والتملك ؟

نعم ولكن ليس بالضرورة هو الفارق بين الشرق والغرب، ولكنه بالأحرى الفارق بين مجتمع محوره الأساس الناس، وآخر محوره الأساسي الأشياء[١].

فالإنسان الذي تشيأ وألقى ثقله في عالم الأشياء هو إنسان قلق لا إيمان لديه، قدرته على الصدق والحب محدودة، يهرب من ذاته بانشغالات عبثية، وتظهر عليه كل أنواع الأمراض النفسية التي تمزقه من الداخل.

والشواهد على العلاقة الازلية بين التملك والقلق تبدو جلية وواضحة، فالمجتمعات الأكثر ثراء هي نفسها المجتمعات الأكثر مرضا حيث يرتبط تقدم الطب فيها بازدياد هائل في كافة أشكال المرض النفسي والجسدي[٢]

ولكن هذا لاينفي أبدًا أن النزوع إلى التملك كما أسلفنا هو حالة طبيعية في حياتنا اليومية، وأن الإنسان من أجل أن يعيش يجب ان يمتلك أشياء، وأن لا أحد يستطيع أن يدير ظهره تمامًا للتملك في حضارة هدفها الأسمي هو التملك ومزيد من التملك، حضارة يتم تحديد قيمة الإنسان فيها بمقدار مايمتلك[٣]

---

(١) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق، ص ٣٩.
(٢) المرجع السابق ص ٣٩.
(٣) إريك فروم : كينونة الإنسان، ترجمة محمد حبيب، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية سوريا، ٢٠١٣، ص٤٠.

غير أن الإنسان قد خرج عن النص حينما أطلق العنان لشهوة التملك لتأخذ الحيز الأكبر من حياته ووجوده، بحيث لم يعد له متسعا ليحيا وجوده ويكون ذاته، بل وعملت على زيادة الهوة بينه وبين الإنسان داخله .

فما يدهش حقا في عالم اليوم هو أن البشر منشغلون بالبحث عن السلطة والملكية، بدلا من البحث عن النمو والتطور والكينونة، يريدون ان يتملكوا الكثير ويستخدموا الكثير، بدلا من أن يكونوا الكثير، هذه هي المعضله المحيرة، والمفارقه الأكثر جنونا.

إنهم أكثر انجذابا من أي وقت مضى لعمليات السكون والعمليات الآلية،عوضا عن انجذابهم إلى عمليات الحياة والعيش، وهذا الانجذاب المحموم وغير الواعي لكل ما هو ليس حيًا يشبهه فروم بمضاجعة الموتي biophilia[1]

ولكن ما الأسباب التي جعلت الإنسان يعلي من قيمة التملك على الوجود ؟ وهل أساء الإنسان فهم التملك والوجود معا؟ وهل يتسنى للإنسان أن يوجد دون أن يمتلك؟ هل يستقيم الوجود دون تملك؟

إن الخطأ التاريخي الذي وقع فيه العصر الحديث كله من وجهة نظر فروم هو ربط القيمة بالملك، وقياس قيمة الإنسان بما يملكه، لأن الملكية لا تضيف قيمة حقيقية للإنسان من حيث هو، كما لا يمكن اعتبارها مرجعية مناسبة لتقييم الإنسان وفقا لها، كما أنها ليست سببا على الإطلاق في تحقيق الرفاهية والإحساس بالسعادة، إن المقدمة السيكولوجية التي تأسس عليها العصر الصناعي، ذهبت إلى القول بأن السعي لتحقيق المنفعة الفردية يؤدي إلى الرفاهية المتعاظمة للجميع، وهو ماكذبته الوقائع، فقد أثبتت المعلومات الملموسة خطأ تلك المقدمة السيكولوجية الثانية للعصر الصناعي، والتي ذهبت إلى أن تحقيق المنفعة الفردية يؤدي إلى تحقيق الانسجام والسلام والرفاهية.

ويتساءل فروم: لماذا يكون هذا المبدأ الذي لم يرفضه سوى واحد فقط من الاقتصاديين الكلاسيكيين العظام هو " دافيد ريكاردو " صحيحا ؟

ويجيب: لأن الأنانية ليست صفة متعلقة بالسلوك فحسب، وانما تتعلق كذلك بالشخصية[2]، فهي تعني أنني أريد كل شيء لنفسي، وأنني أجد المتعة في الاقتناء وليس في المشاركة، كما تعني أنني يجب أن أكون جشعًا لأنه اذا كان هدفي التملك، فانني أكون أكبر بقدر ماتزيد ملكيتي، ويجب أن أشعر بأنني خصم للآخرين جميعا من حولي كزبائني

(١) المصدر سابق ص٤٤.
(٢) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق ص ٢٤

الذين أريد أن أخدعهم، ولمنافسي الذين أريد أن أقضي عليهم، ولعمالي الذين أريد أن أستغلهم وإنني لا يمكن أن أشبع لأنه لا حد لرغباتي، وأنني لابد من أن أحسد من يمتلك اكثر مما أملك، وأخاف ممن يملك أقل وفي نهاية المطاف لابد وأن تفضي شهوة التملك هذه إلى حرب طبقية لا تتوقف أبدا[١]

وفي كتاب " كينونة الإنسان"يعود فروم للفكرة نفسها التي أوردها في كتابه " to Have or to Be ": أود أن أعبر عن كرهي لحقيقة أن كل شيء وكل شخص تقريبا للبيع، ليس فقط السلع والخدمات، بل الأفكار، والفن، والكتب، والأشخاص، القناعات، الشعور، الابتسامة، كلها تحولت إلى سلع، وكذلك الإنسان كله بكل جوارحه وإمكانياته.

عندما يكون الإنسان للبيع كيف تثق أنه سيكون غدًا هو نفسه الذي تعرفه اليوم ؟ كيف أعرف من هو أو لمن سأمنح ثقتي ؟

كيف أثق أنه لن يقتلني أو يسلبني؟[٢]

هذه الحالة من الخوف الإنساني أو إن شئت قل الرعب الإنساني التي مصدرها ضياع القيم الإنسانية وإخضاع كل شيء للبيع والشراء، بما في ذلك الضمائر التي كانت يومًا ما حية.

وفي حضارة حمقاء جارت على أفضل ما في الإنسان، وجوده وإنسانيته، هل لنا أن نشعر بالثقة والأمان في الغد؟

في عالم مشوش مسكون بالمفارقات والمتناقضات، ومحكوم بالصراعات، عالم يتغذى على دماء البشر، كيف يتواصل الإنسان مع ذاته وكيف يحقق ذاته بعيدا عن آفة التملك وشبح العنف، فمن المعروف أن الرغبة في الحصول على الملكية الخاصة تولد الرغبة في استخدام العنف من أجل سرقة الآخرين بوسائل سافرة أو خفية، وتكمن سعادة الإنسان في أسلوب التملك في تفوقه على الآخرين، وفي قوته، وهي وفق تحليل فروم تكمن في قدرته على أن يغزو ويسرق ويقتل.

أما في أسلوب الكينونة فإن السعادة هي المحبة والمشاركة والعطاء[٣].

من هنا يتضح لنا أن فروم يرى في المبالغة في التملك سلوكًا غير أخلاقي يتعارض مع المعطيات الأخلاقية، والمبادئ السلوكية، والأهداف الوجودية العليا للإنسان، باعتبار أن

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥.
(٢) إريك فروم : كينونة الإنسان، مصدر سابق ص ٤٢.
(٣) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق ص ص ٨٣، ٨٤ .

إشباع كل مايعين للإنسان من رغبات وشهوات بغير قيود لا يوصل للحياة الطيبة، وليس هو السعادة أو المتعة القصوى[١].

مأساة الإنسان في العصر الحديث:

لقد استنزف إنسان العصر الحديث نفسه، واستنفد كل طاقاته الخلاقة في التملك والاستهلاك، بل وفي استهلاك السلع التافهة غير ذات الجدوى، والسبب في ذلك كما يرى فروم يعود إلى أنه نسي ذاته، وتناسي شروط وجوده الحق .

ولهذا الأمر وحده دون غيره كان الرفيقان "هوركهايمر" و"أدورنو" يرددان في (جدل التنوير) كل تشيؤ عبارة عن نسيان[٢]، فلما نسي الإنسان نفسه صار شيئا يُقذف به هنا وهناك، إنه ميت حتى وإن كان مايزال يتنفس، ذلك هو الوضع الذي كان يشخصه ويحلله إريك فروم، وكان يعني أن اغتراب الإنسان عن ذاته هو انفصاله عن الطبيعة المثالية.

إن فروم يصب جام غضبه على العصر الصناعي، ذلك العصر الذي اشتهر بالذكاء العلمي والحماقة في الوقت نفسه، لأنه وبالرغم من التكنولوجيا المتعاظمة في كل شئ، إلا أنه قضى على إنسانيه الإنسان وإذا استعرنا عبارة ادجارموران نقول: " إن حضارة الكهرباء لم تضئ الظلام الداخلي " .

لقد جعلنا التقدم العلمي وكأننا عالمون بكل شيء، كنا على الطريق، لكن نصير أشبه بالآلهة على الأرض، أي كائنات عليا قادرة على خلق عالم آخر، لانستخدم العالم الطبيعي إلا كأحجار لبناء عالمنا الذي هو من خلقنا[٣]، فمن ثالوث الإنتاج غير المحدود والحرية المطلقة، والسعادة غير المحدودة، تشكلت نواة دين جديد اسمه التقدم، غير أننا مُنينا بالصدمة حينما أخفق هذا التقدم في تحقيق الوعد العظيم بالسعادة والرفاهية، فالحلم بأن نكون بعد كل هذا التقدم السادة الأحرار لحياتنا قد انتهي،لماذا؟ لأننا وبكل صراحة قد بدأنا ننتبه إلى أننا جميعا قد أصبحنا مجرد تروس في الآلة البيروقراطية، وأننا هجرنا ذواتنا وحريتنا وتركنا أدوات العصر الصناعي هي التي تشكل مشاعرنا وأفكارنا وأذواقنا، حتى حولتنا إلى أشياء مغتربة .

---

(١) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق ص ٢٠.
(٢) هوركهايمر، وادورنو : جدل التنوير، شذرات فلسفية، ترجمة جورج كنورة، دار الكتب الجديده ط١ ٢٠٠٦ ص٢٧٨
(٣) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر " مصدر سابق ص ١٩.

ويعزو فروم أسباب التشيؤ والاغتراب عند الإنسان المعاصر إلى النظام الاقتصادي الرأسمالي؛ ذلك أن علاقات الإنتاج والسوق الرأسمالية هي المسئولة عن عبادة السلع وصنميتها، تلك العبادة التي أضفت على علاقات الناس بالأشياء وبعضهم البعض طابع التبادلية والسلعنة[١]يقول فروم في كتابه to Have or to Be" إن ثقافتنا بأكملها مبنية على شهية الشراء، على فكرة تبادل إيجابي للجميع[*].

ويستطرد قائلا: إن سعادة الرجل الحديث تتكون من الشعور بالنشوى من النظر إلى نوافذ المحل، وفي شراء كل ما يمكن شراؤه إما نقدًا، أو بالتقسيط[**].

وحتى علاقة الناس مع بعضهم البعض لا تختلف عن علاقتهم مع الأشياء، وتتخذ الثقافه التجارية نفسها، بل وأكثر من ذلك فإن العلاقات العاطفية نفسها لا تخرج هي الأخرى عن إطار السلعنة.

بالنسبة للرجل فتاه جذابة، وبالنسبة للمراة رجل جذاب ... تعني عادة حزمة لطيفة من الصفات التي يريد كل منهما أن يقتنيها في شريك الحياه، وهكذا يقع شخصان في الحب عندما يشعران أنهما قد وجدا أفضل شئ متوفر في السوق بالنظر إلى القيود التي تحد من قيم التبادل الخاصة بهما[***].

وهكذا يتضح أننا نعيش في مجتمع مكرس تماما لحيازة الأملاك، وتحقيق الربح، لا تستثني منه علاقات الحب، لذلك يندر أن ترى أي شاهد على وجود أسلوب الكينونة في الحياة، فاغلبية الناس لا ترى إلا أسلوب التملك بوصفه الأسلوب الأكثر طبيعة للوجود، بل يرونه الأسلوب الوحيد المقبول للحياة، ولهذا يصعب على الناس فهم المقصود بأسلوب الكينونة أو إدراك أن التملك ليس إلا توجها حياتيا واحدًا بين توجهات محتملة، ومهما يكن فإن للأسلوبين – كما يقول فروم جذورًا – عميقة في التجربة الإنسانية[٢].حتي وان سيطر التملك على الوجود في الثقافة المعاصرة.

---

(١)د/ عبد الغفار مكاوي: النظرية النقدية، المدرسة فرانكفورت،تمهيد وتعقيب نقدي، حوليات كلية الآداب - جامعه الكويت، الحولية الثالثة عشر، عام ١٩٩٣، ص ٢٣.

(*) Our whole culture is based on the appetite for buying ,on the idea of a mutually favorable exchange.

(**) Modern man's happines consists in the thril of looking at the shop windows , and in buying all that he can afford to buy either for cash or on installments .

(***) Two persons thus foll in love when they feel they have found the best object ovailable on the market,considering thelimitations of their own exchange values.

(٢)إريك فروم :"الإنسان بين الجوهر والمظهر "،رجع سابق ص ٥٠

الفرق بين التملك والكينونة:

يطرح فروم بعض الأمثلة المختلفة لتوضيح الفرق بين تصوره لكل من مفهومي "التملك " to Have والكينونة to Be.

المثال الاول "التعلم":

فطلاب الجامعة في قاعة المحاضرات الذين يحفظون في ذاكرتهم ليجتازوا الامتحان بنجاح، هؤلاء الطلاب يحولون الكلمات التي يسمعونها إلى مقولات فكرية ثابتة، أو نظريات يتم اختزالها في الذاكرة كما هي،ويصبح كل شخص مالكا لمجموعة من العبارات والصيغ التي يتوصل إليها من خلال الدرس الجامعي.

هذا فيما يخص الكينونة، التي يكشف فيها كل فرد عن ذاته، وعن القوة الكامنة في نفسه، حيث يتدخل الإبداع الشخصي في النص المكتوب، أما فيما يخص التملك، فإن الأمر على النقيض من ذلك، حيث نجد الطلاب يتشبثون بما تعلموا، دون أي ابتكار أو إبداع أو إضافة، لذلك فالشخص التملكي ينتابه الاضطراب تجاه أي أفكار أو آراء جديدة حول أي موضوع محل دراسة.

وعليه فإن التعاطي مع أي موضوع بأسلوب الكينونة يقتضي إثارة للعقل والفكر، وأن تكون هناك ماده فكرية تقتضي ذلك التوجه، أما الكلام الأجوف الذي يفتقر إلى المضمون، فإنه يستحيل التجاوب معه بأسلوب الكينونة.

المثال الاخر الذي يورده فروم هو "التذكر "

والتذكر وفقا للتملك تكون الروابط فيه آلية تماما، كان تترسخ العلاقة بين الكلمة والكلمة التي تعقبها على أساس من التكرار، أو أن تكون العلاقة منطقية خالصة، مثل العلاقات بين الأضداد أو بين المفهومات المتقاربة، أما التذكر من خلال الكينونة فهو الاستعادة الحية للكلمات، والأفكار، والمناظر، والرسوم، والاصوات، والموسيقي، أي أنه الربط الحي بين ما نريد تذكره، والملابسات الكثيرة الأخرى المحيطة بالذكرى.

وهكذا نجد أن روابط التذكر في أسلوب الكينونة ليست آلية ميكانيكية، ولا منطقية خالصة، كما هو الحال في أسلوب التملك وإنما هي ذكرى حية ترتبط فيها الفكرة بالأخرى في عمل ذهني.

مثال: الارتباط بين الصداع وأقراص الأسبرين يكون ارتباطا تقليديا، في حين يختلف الأمر في حاله الارتباط بين الصداع والشعور بالتوتر أو الغضب، حيث يكون هنا ربط بين المعني اللفظي بأسبابه المحتملة[١].

إن التذكر في أسلوب الكينونة معناه أن نعيد إلى الحياة الشئ الذي رأيناه وسمعناه من قبل، ونستطيع أن نمارس هذا التذكر المثمر بمحاولة الرؤية المجسدة لوجه إنسان، أو منظر سبق أن رأيناه.

ولكن التذكر عند أصحاب أسلوب التملك يتمثل في الطريقة التي ينظر بها معظم الناس إلى صورة فوتوغرافية، حيث تصبح الصورة بالنسبة للأغلبية مجرد ذكرى مغتربة[٢].

المثال الثالث الذي يقدمة فروم هو "ممارسة السلطة"، حيث يتجلي الفارق الحاسم بين أن "يمتلك" الشخص سلطة وبين أن" يكون" هو في ذاته سلطة[٣].

وقد لا يبدو الفارق واضحا تماما بين المعنيين، إلا أن هناك فارقًا جوهريًا لا يمكن تجاهله، فالسلطة التي يملكها الشخص من وجهة نظر فروم هي سلطة لا عقلانية أساسها القوة، وهي تستخدم في استغلال الأشخاص الخاضعين لها لماذا؟

لأنها لا تنبع من ذات مفكرة بينما السلطة التي تنبع من ذات الإنسان تكون سلطة رشيدة وعقلانية تقوم على الكفاءة والمقدرة، وهي تساعد الشخص الذي يمارسها على النمو والارتقاء[٤].

المثال الرابع " المعرفة " " وامتلاك المعرفة "

حيث يكشف فروم في مجال المعرفة عن فارق ربما يبدو دقيقًا، وقد يندرج ضمن فقه اللغة، بين أسلوب التملك وأسلوب الكينونة في العبارتين التاليتين: "أنا أمتلك قدرًا من المعرفة" و"أنا أعرف".

حيث يلاحظ أنه في العبارة الأولي يأخذ جزءًا من المعرفة وتحتفظ بها كملكية.

أما في العبارة الثانية فتعني المعرفة بمعناها الوظيفي كجزء من عملية التفكير المثمر "وارتقاء المعرفة في أسلوب الكينونة يعني التعمق"، بينما تعني في أسلوب التملك الحصول على مزيد من المعارف بغض النظر عن مستوى التعمق.

---

(١) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق ص ٥١
(٢) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق ص ٥٢
(٣) المرجع نفسه، ص٥٧.
(٤) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق ٥٧

ثمـه مثـال آخـر يسـوقه فـروم لتوضـيح الفـرق بـين التملـك والكينونـة ألا وهـو مفهـوم "الإيمان"، فالايمان في إطار التملك هو أن يملك الشخص إجابات عن الأسئلة المطروحة من غير أن يكون لديه دليل عقلاني عليها، وهذا الإيمان يشتمل على صياغات توصل إليها الآخرون يقبلها الشخص بحكم خضوعه لهم، وهذا النمط من الإيمان يريح الشخص من مشقة التفكير واتخاذ القرار، بينما الإيمان في نمط الكينونة فهو توجه داخلي وموقف ذاتي في المقام الأول.

ويرى فروم أنه من الأفضل للإنسان أن يكون في حالة إيمانية على أن يقال إنه يملك إيمانا(١).

المثال الاخير هو "الحب": حيث يعتقد فروم أنه لا وجود لشيء يسمي حبًا، وإنما يوجد فقط ما يمكن أن نطلق عليه "فعل المحبة" أما ما اصطلح الناس على تسميته "حبًا" فهو ليس إلا إفسادًا وابتذالاً للكلمة(٢)، ويقدم فروم حجته التي قد تبدو مقنعة على ذلك قائلا: في الفترة التي يخطب المحب فيها ود محبوبته، ويقترب منها، يكون كل منهما ما يزال غير واثق من مشاعر الآخر ويحاول كسبه بشتي الطرق، ولذا فإن كلا منهما يكون ممتليء حيوية وجاذبية.

وفي هذه المرحلة لا يكون أحد الطرفين قد استحوذ (ملك) الآخر ومن ثم تكون الطاقة موجهة بالكامل للكينونة بمعني العطاء وإثارة المشاعر، ولكن مع الزواج تتغير الأمور تماما ويبدأ الفتور يتدخل في العلاقة، فقد أصبح كل منهما "مالكاً" لحب الأخر، وبالتالي يتوقف كل طرف عن بذل أي جهد لأن يكون محبوبا، ويرى أنه قد تجاوز هذه المرحلة من التوهج العاطفي، وهكذا تصبح الحياة في ظل الارتداد من الكينونة إلى التملك أقرب إلى الرتابة والملل(٣).

وعلية فلا يمكن اعتبار التملك أو الكينونة أحدهما بديلاً عن الاخر.

كما أن المعلومات التجريبية الأنثرويولوجية المستمدة من التحليل النفسي تدل على أن التملك والكينونة طريقان أساسيان لخبرة الحياة، وأن القوة النسبية لأحدهما أو للآخر، هي التي تحدد الفوارق بين شخصيات الأفراد والأنماط المختلفة للشخصية الاجتماعية(٤).

---

(١) إريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق، ص ٦٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٦٥.
(٣) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصر سابق، ص ٦٦،٦٧.
(٤) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق، ص ٣٦.

غير أن طغيان التملك في حياتنا المعاصرة وضعه في مكانة ليست له، وجعل البعض ينظر إليه وكأنه جوهر الكينونة، وأن من لا يملك شيئا لا يساوي شيئا[١]، ولا يستحق أن يكون.

التملك والكينونة بين الدين والتاريخ:

في الحقيقة إن التاريخ الإنساني يخبرنا بأن الخيار بين التملك والكينونة كان قضية أساسية في تعاليم الأساتذة العظام الذين تصدوا لظاهرة التملك.

فمثلا يعلمنا بوذا Buddha أنه من أجل الوصول إلى أسمى درجات النضج الإنساني يجب أن نزهد فيما حولنا، وألا نشتهي ملكية شيء، ومن تعاليم السيد المسيح عليه السلام أن الذي يريد أن يخلص حياته يفقدها، وأما الذي يفقد حياته في سبيلي، فإنه يخلصها، فماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله، وفقد نفسه أو خسرها (انجيل لوقا٩ ٢٤-٢٥).

وبعبارة أكثر وضوحاً إذا امتلك الإنسان كل شيء، وفقد ذاته، وأسقط وجوده من حساباته، فهل يكون قد امتلك شيئًا.

هناك مقولة للفيلسوف فولتير VOLTAIRE يقول بامتلاك المال لا يعرف الإنسان ذاته، وبغير المال لن يعرفك الناس.

فامتلاك المال لا يمكن اعتباره مدخلا للكينونة ومعرفة الإنسان لذاته، كذلك فإن من تعاليم المعلم " ايكهارت: " إن شرط تحقيق القوة والثراء الروحي هو ألا يملك الإنسان شيئا وأن يجعل نفسه منفتحة خالية، وألا يدع ذاته تقف عقبة في طريقه".

ومن تعاليم كارل ماركس أن الترف لا يقل رذيلة عن الفقر وأن الهدف من الحياة هو مزيد من تحقيق كينونتنا، وليس الاستزادة من ملكيتنا[٢].

واذا ابتعدنا قيلا عن الأمثلة التي يقدمها فروم، واتجهنا إلى القرآن الكريم، سوف نجد هذه الافكار العظيمة نفسها التي أكد عليها الدين الاسلامي، والتي تدعو إلى إعلاء قيم الوجود الإنساني والزهد في الاشياء.

فقد دعا الحق تبارك وتعالي إلى أن ينبذ البشر طريق الجشع والتملك في قوله تعالي : ويل لكل همزه لمزه الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده " (الهمزه الايات ١،٢،٣)

كما دعاهم إلى أن يسلكوا طريق الحياة الطيبة:

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٥

(٢) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر، المصدر سابق، ص ٣٥.

"ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " (الحشر الاية (٩)).

ودعا الحق تبارك وتعالي الإنسان إلى استخدام عقله وحواسه وبصيرته: "لقد خلقنا الإنسان في كبد، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد، يقول أهلكت مالا لبدا، أيحسب أن لم يره أحد، ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين، وهديناه النجدين (سورة البلد الآيات ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠)، والإنسان في البيان القرآني هو الذي يحمل الوصية (سورة لقمان اية ١٤ والعنكبوت آية ٨).

وهموم المكابرة واقتحام العقبات لتحقيق وجوده الإنساني (سورة البلد: الآية ٤ و١٢) كما أنه الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنه الغواية وهو في النهاية اكثر شيء جدلا (سورة الكهف الاية ٥٤)[١].

وهكذا نرى أن فكرة التملك لم تحظ بالإشادة من كافة الأديان السماوية، ولم يحض عليها اي من هذه الاديان.

كما أن التمركز حول اللذة التي يسببها التملك ظلت قضية منبوذة عند المعلمين الكبار لفن الحياة في كل من الصين، والهند، والشرق الأدني وأوروبا، ولعل الاستثناء الوحيد الذي شذ عن القاعدة هو الفيلسوف اليوناني اريستبوس (تلميذ سقراط)والذي كان يرى ان هدف الحياة هو ممارسة أقصي ما يمكن من المتع والملذات البدنية، وأن السعادة هي مجموعة هذه المتع والملذات، وحتي أبيقور صاحب مذهب اللذة في الفلسفة لا يمكن اعتباره من الداعين إلى مذهب اللذه الراديكالي، رغم أنه يذهب إلى حد اعتبار المتعة الخالصة هي الهدف الأسمي، إذ أن اللذه عنده لم تكن تعني الإغياب الألم وسكينة الروح[٢].

المفارقه بين التقدم والاغتراب:

لقد تميزت الثقافة الغربية في العصر الحديث بالفخر والغرور والتفاؤل غير المحدود بقدرة العقل على فهم الطبيعة والسيطرة عليها، وهذا الفخر بقدرة العقل لدى الإنسان الأوروبي كان مبررا، فهذا الإنسان يفضل عقله بنى عالما ماديا يفوق أحلام الحكايات العجيبة، فقد تغلب الإنسان على الكثير من مشكلات الماضي، وأصبح كائنا منتجا لأدوات رفاهيته ووجوده، ولأول مرة في تاريخه يصبح قادرًا على الاقتراب أكثر فاكثر من تحقيق وحدة الجنس البشري، والتغلب الكامل على الطبيعة وتطويعها لخدمة أهدافه.

(١) انظر مقدمة الترجمة العربية لكتاب فروم الإنسان بين الجوهر والمظهر مرجع سابق بقلم لطفي فطيم ص ١٦
(٢) إريك فروم: كينونة الإنسان، مصدرسابق، ص ٤٨.

ولكن بالرغم من هذا التقدم المدهش الذي نلمسه في الحضارة الصناعية . تبقي المفارقة قائمة، وتزداد اتساعا بين التقدم والاغتراب، فالإنسان الحديث لا يفتأ يشعر بالقلق والحيرة، فهو يعمل ويكدح إلا أنه يبقي غارقا في الشعور بالامعقولية والعبث فيما يتعلق بنشاطاته، وبينما تزداد سيطرته على الطبيعة، يشعر بالعجز في حياته الفردية وفي المجتمع، وعلي حين يخلق في كل يوم أدوات جديدة للهيمنه على الطبيعة، فقد أصبح هو نفسه أشبه بترس في تلك الماكينة التي صنعتها يداه، وفقد البوصلة التي تؤدي إلى إنسانيته، وفقد رؤية الغاية التي تضفي على كل هذه الدوات المعني، وهو الإنسان ذاته[١] ، وبينما أصبح سيد الطبيعة، غدا عبدًا للآلة التي بنتها يداه، وهو بكل معرفته عن المادة يبقي جاهلا فيما يتعلق بأهم مسائل الوجود الإنساني وأكثرها أساسية، من هو الإنسان؟ وكيف ينبغي أن يعيش؟ وكيف يمكن إطلاق الطاقات الهائلة فيه واستخدامها بصورة منتجة[٢]؟

كما صارت فكرة كرامة الإنسان وقدرته التي منحت الإنسان القوة والشجاعة بفعل انجازاته الهائلة يتحداها مأزق وجودي، ألا وهو أن علينا أن نعود إلى قبول عجز الإنسان النهائي وتفاهته.

مما اعاد الإنسان المعاصر من جديد إلى المربع الاول، وهدد بنسف الجذور التي بنيت منها ثقافتنا.

إن القفزة المتنامية للعصر الصناعي كانت سلاحا مزدوجا، فهي وان قدمت وعودا بالرفاهية فقد فرغت الإنسان من مصادر قوته الذاتية، وجلبت له الشعور بالضياع والفقدان .

فالمجتمع الصناعي ودون أن يدري سواء بقصد أو غير قصد قد أوجد أسباب فناءه وفناء الإنسان، كما أن كل الوعود التي حملها للانسان لم تكن سوى أكذوبة كبرى، فكل الوعود بالديمقراطية والحرية والعدالة قد جاءت بنتيجة مغايرة وعكسية تماما، بل وكارثية على الإنسان الذي انبهر بهذه الوعود.

لذلك ينتقد فروم الدوجماطيقيات الخبيثة التي تروج لها المجتمعات الحديثة، كأن تستخدم كلمات مثل "الديمقراطية" و"العقل"، و"العلم" و"الموضوعية"و" حقوق الإنسان"،وكأن هذه المصطلحات هي رقى سحرية ينقلب البلد بمجرد التفوه بها إلى فردوس أرضي، في حين أننا لو أنعمنا النظر في هؤلاء المتشدقين بهذه لكلمات، لوجدناهم بعيدين كل البعد عن الحرية التي هي ماهية الديمقراطية باستبداديتهم وخضوعهم لسلطة الدعاية، وتوهم أن الحرية

(١) إريك فروم: الإنسان من أجل ذاته، ترجمة محمد متقذ الهاشمي، دمشق منشورات وزاره الثقافة ٢٠٠٧، ص ٣٨.
(٢) إريك فروم : الإنسان من أجل ذاته، مصدر سابق، ص ٣٨.

هي ما سيأخذونه من الديمقراطية، وليست ما سيعطونه لها، ولوجدانهم وبعيدين عن العقل، طالما كان العقل هو الإحاطة بالعالم المحيط بهم، وبعيدين عن العلم، لا يكلفون أنفسهم عناء أية معرفة علمية جدية، وبعيدين عن الموضوعية، لا يستطيعون أن يفكروا بتجرد عن اهوائهم، ولا يعرفون عن حقوق الإنسان إلا ما تمنحهم إياه وسائل الإعلام، وقد لا يعرفون ان أبسط معاني حقوق الإنسان تتناقص تماما مع معتقداتهم الأساسية [١].

ويبدو أن الإنسان في كل مرة يبتلع طعم الديمقراطية، ويخدعه البريق الذي يغلف هذه الكلمة، ولم يتعلم من دروس التاريخ المتعاقبة التي شهدت على بؤس الديمقراطية، فمن المعروف تاريخيًا أن الديمقراطية قد انحطت في بعض الأحيان إلى حكم الغوغاء mabrute، والمثال المشهور هو الديمقراطية اللاتينية في القرن الخامس ق.م، ولا ننسي أن هتلر وموسوليني قد صعدا إلى الحكم نتيجة الانتخابات الديمقراطية، ومع ذلك فإن الكوارث التي سببها أشهر من أن يعاد ذكرها، وقد ارتكبت الولايات المتحدة وما تزال أكبر الجرائم الحربية الحديثه وهي دولة ديمقراطية، وعليه فلا شئ أكثر إضرارا بالديمقراطية من التفاؤل الساذج بأن كل شئ يسير نحو الأفضل بصورة آلية من الديمقراطية .

لقد ظن العديدون أن الحرب العالمية هي الصراع النهائي، وأن انتهاءها يعني الانتصار الأقصي للحرية، لقد وضح أن الديمقراطيات القائمة قد تدعمت، وأن الديمقراطيات الجديدة قد حلت محل الملكيات، ولكن لم تكد تنقضي سوى بضع سنين قليلة، إلا وظهرت أنظمة جديدة تتنكر لكل شئ يؤمن الناس بأنهم قد اكتسبوه خلال قرون الصراع، ذلك لأن جوهر هذه الأنظمة الجديدة التي تتولى قيادة الحياة الاجتماعية والشخصية الكلية للإنسان هو خضوع الكل، فيما عدا حفنة من الناس تتمتع بسلطة لايتحكمون فيها[٢].

وإذا كانت الديمقراطية في نظر البعض مسألة يمكن اختصارها في الانتخابات، فقديما أشار أرسطو في كتابه علم السياسة إلى أنه كان بين البرابرة ملوك منتخبون يمارسون سلطة استبدادية، وكان الحكام الطغاه ينتخبون قديما في اليونان التي تدعى هلاس، ويطلق عليهم الايسنمتيين aesrymnets أي الديكتاتوريين[٣].

وعليه فإن الديمقراطية والحرية منذ القدم وهي محض شعارات لم تترجم على أرض الواقع.

---

(١) إريك فروم : " المجتمع السوي" ترجمه محمد منقد الهاشمي، دار التنوير، مؤسسة الجامعات للدراسات، بيروت ٢٠٠٢، ص ٧٣.

(٢) إريك فروم : "الخوف من الحرية " ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٢، ص ١٢

(٣) Aristotle: Politics. Washington .square. press.inc .book4. New York. p 329

فالمجتمع الاقتصادي البيروقراطي لا يمكن وصفه بالديمقراطية، إنه مجتمع بشر قلقين وخائفين، بشر خائفين جدا بشأن إمكانياتهم في النجاح والفشل، خائفين على هذا الجانب من حياتهم الشخصية، وخائفين من إمكانية تدميرهم التام في الحرب النووية التي يمكن أن تندلع في أي وقت. فالأسلحه الذرية التي هي أحدث ما تفتقت عن ذهن الإنسان الحديث هي رمز مثير ومروع جدا عن ماهية الاغتراب، هذه الاسلحة تعبر حقيقة عن أعظم إنجازات الإنسان الفكرية، ومع ذلك فهي تحكمنا، وأصبح من المشكوك فيه ما اذا كنا سنحكمها ذات يوم، فنحن البشر الراغبين في أن نعيش نصبح عاجزين رغم أننا ظاهريا بشر مطلقوا السلطة، نعتقد أننا نسيطر، مع ذلك مُسيطر علينا، ليس من قبل الطاغية،بل من قبل الأشياء، من قبل الظروف لقد أصبحنا بشرا دون إرادة أو هدف، نتحدث عن التقدم والمستقبل، رغم أنه في الواقع لا أحد يعرف إلى أين هو ذاهب، ولا أحد يقول أين تسير الأمور، ولا احد لديه هدف.

في القرن التاسع عشر تجرأ نيتشه وأعلن :" لقد مات الإله، وفي القرن العشرين قال فروم: "إن الإنسان قد مات (لقد مات الإنسان وتحيا الاشياء) ربما ليس هناك مثال يدل على شناعة هذه البربرية الجديدة أكثر من فكرة التخطيط الحالي من جانب الكثير من الحكومات لصناعة قنبلة نيوترونية، ويتيساءل فروم عن الذي ستفعله قنبلة نيوترونيه ؟ سوف تدمر كل شئ حي، وستبقي على ما هو غير حي، الأشياء، المنازل، الشوارع [1]والنتيجة الطبيعية كما نرى هي أن أصبح الإنسان لا مباليا بالحياه، حتى إنه يفاخر بجنونه وباختراعه صواريخ وأسلحة نووية يمكن أن تقضي على الحياة على ظهر الأرض في لحظات بدلا من أن ينفر منها ويمقتها، وبدلا من أن ينتابه الحزن والألم لمجرد التفكير في تدمير الحياة كلها.

فالنظام الاقتصادي البيروقراطي خصوصًا كما تطور في الشركات الكبري، ومافيا المصالح ينتج القلق والاغتراب في المقام الأول بسب المفارقة والتناقض بين كبر الكيان الاجتماعي (شركة – حكومة – خدمات)، وصغر الفرد، أضف إلى ذلك انعدام الأمن الذي ينتجه هذا النظام لدى كل أفراده وفي كتابه "نزوع الإنسان إلى التدمير"[2].

يهاجم فروم المدافعين عن هذا النظام والمتفائلين بنتائجه واصفًا إياهم بأنهم المعتقدون بالعقيدة الجازمة المسلم بها، حول السير المستمر للتقدم، وهم معتادون أن يماثلوا الإنجاز الإنساني مع الانجاز التقني، والحرية الإنسانية بالتحرر من القسر، وحرية المستهلك في

(١) إريك فروم : "كينونة الإنسان"، ترجمه محمد حبيب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقيه سوريا ٢٠١٣، ص٣٠

(٢) إريك فروم: كينونه الإنسان، مصدر سابق، ص ٣٩.

الاختيار بين السلع المزعوم انها مختلفة، هؤلاء الاشخاص الذين اختصروا حياة البشر في هذه الخانات ، هم على درجة كبيرة من الاغتراب والانفصال، بحيث حتى تهديد مستقبل أحفادهم لا يمثل لهم شيئًا، ولا يؤثر فيهم تأثيرًا في الصميم، بل وحتي المتشائمين منهم لا يختلفون كثيرًا عن المتفائلين وهم لا يشعرون باليأس لأنهم لو شعروا به لما عاشوا، ولما استطاعوا ان يعيشوا برضي كما يعيشون، أما المتفائلون فإنهم يكذبون على أنفسهم ويدافعون عنها في وجه المطالبة الداخلية ذاتها، بإقناع أنفسهم بأن كل شئ يمضي كما هو مرسوم له في الاتجاه الصحيح، ولذلك فلا حاجة إلى القيام بشئ(١).

وعليه يقرر فروم أن التفاؤل هو الصورة المغتربة من الإيمان، وأن التشاؤم هو الصورة المغتربة من اليأس(٢)،فكلا الجانبين التفاؤل والتشاؤم لا ينقل صورة صادقة عن الواقع، وإن كان بين الموقفين اختلافا سيكولوجيا دقيقا كما يذهب إلى ذلك التحليل النفسي عند فروم أن التفاؤل بحتمية انتصار الاشتراكية كان من صميم الأسباب التي أدت إلى انهيار البلدان الاشتراكية في اوروبا الشرقية، حيث كان الاشتراكيون لا ينظرون إلى المشكلات الخطرة والحقيقة التي تكتنف مجتمعاتهم، ولا يقومون بأي عمل جدي وسريع لحلها، على أمل أن يحلها القدر الذي هو حسب تعبيرهم حركة التاريخ، حتى قضت عليهم تلك المشكلات التي تركت طويلا دون حل، فالإيمان بشئ يجب أن يستند على حقائق وعلي تقديرات واقعية، فامتلاك الإيمان حسب فروم هو " الجرأة على التفكير فيما لايفكر فيه أحد، والعمل لذلك ضمن حدود الممكن، وعدم وهن العزيمة حين لايجيئ المخلص كل يوم، وهذا الأمل هو البحث اللحوح والدؤوب عن كل وسيلة ممكنة للعمل ضمن مجال الممكنات الحقيقية(٣) فالإيمان ليس رؤية للمستقبل، بل للحاضر الذي سيأتي، وهو يقتضي الإحساس بالذات والإيمان بها(٤)ويعتمد الإيمان على الإنسان بوصفه عقلا، وحدسا، وعاطفة، وخيالا، وعلي التجارب التي عاشها، وحتي إن آمن الإنسان بالعقل أو بالحرية أو الإنسانيه، فإذا لم يكن ما آمن به نتيجة خبرته، وإنما لخضوعه لسلطة الآخرين ودعايتهم، كان إيمانه من النوع غير العقلي والعقيم.

ويلفت فروم النظر إلى مسأله بالغة الأهمية وهي أنه لا يسيئ إلى أفكار الحرية والديمقراطية إلا الإيمان غير العقلي، عندما لا تتاسس على التجربة الإنتاجية لكل فرد، بل تقدمها إليه الأحزاب والدول التي ترغمه على الاعتقاد بهذه الافكار(٥).

---

(١) E. Fromm: The Anatomy of Ltuman Destructiveness, London pimalco 1997 p.578
(٢) ibid p.577
(٣) E. fromm : the Anatomy of Human Destruetiveness , p579
(٤) إريك فروم :" المجتمع السوي"، مصدر سابق، ص ٦٢.
(٥) E. Fromm: man for him self, Routledge ,kegan paul, London, 1978 p.210

الإنسان الاستهلاكي وأزمة الهوية:

يري فروم أن نمط التملك قد سجن الإنسان في عالم الاستهلاك والمادة، وهو النمط الطاغي على الحضارة الصناعية المعاصرة، لذلك نراه يصف النزوع للاستهلاك بأنه نزوع لابتلاع العلم بأسره، واصفًا الإنسان الاستهلاكي بأنه "الرضيع الابدي" الذي لا يكف عن الصياح في طلب زجاجة الرضاعة، ويتضح هذا في الظواهر المرضية خاصة إدمان الخمر والمخدرات[٢]،بينما الامر على النقيض تماما نمط الكينونة، حيث تتجلى فيه ملامح إنسانية الإنسان بشكل واضح، ويرجع فروم السبب في طغيان نمط التملك، وإخفاق التقدم إلى التضليل الذي حمله العصر الصناعي للانسان، إلى أن معظم منجزات العصر الصناعي التي حملتها إلى البشرية آلة التقدم كانت محض أساطير مضللة، وذلك أن التقدم – وبفعل تناقضاته الداخليه – قد أخفق تمامًا في تضييق الهوة ما بين الامم الغنيه والفقيرة، بل والادهي من ذلك انه كرس من اتساع الهوة بين دول الشمال والجنوب بشكل كبير جدا، هذا بالاضافة إلى القدرة السحرية التي تمتلكها الآله "الإعلامية" في توجيه وتشكيل المشاعر والأفكار والأذواق، والتلاعب بها بالطريقه التي تريد، ولا يغفل فروم ما سببه النظام الصناعي بأدواته التكنولوجية من مخاطر على البيئة والطبيعة والإنسان حتى أصبح يهدد الوجود الإنساني برمته، فإنسان القرن العشرين وما بعده لم يستفد أخلاقيا من التقدم، لذلك فهو يعيش فكريًا في القرن العشرين، وعاطفيًا في العصر الحجري، بعد ما تم استنزافه وتفريغه أخلاقيا وحضاريا، وبعدما فقد الثقة في الاخرين من حوله[*]، هذا الإنسان ما تزال مشاعره وأهدافه قبلية برغم التقدم، إنسان مملوء بالشكوك، ولا يثق ثقة كاملة إلا في أفراد قبيلته، وهذه هي إحدي المنجزات الكارثية للعصر الصناعي، كما أن هذا الإنسان وبفضل آلة التقدم الباهرة، قد أصبح صانعًا ماهرًا للحروب والكوارث المدمرة والمغامرات العبثية والبربرية في شتي بقاع الأرض. فليس كافيًا أن نعلم أن الحروب التي وقعت في فيتنام، أو في أي مكان آخر عديمة المعنى وخطيرة ولا أخلاقيه، وأن عنف الزنوج في أمريكا جاء نتيجة حتمية لبؤس حياة الغيتو الاسود. وأن الاستهلاك الزائد واستخدام مزيد من الأجهزة المتطورة لا يزيد السعاده، وأن اقصى ما يفعله هو ان يخدر الضجر.

هذه هي التركه الثقيلة التي تركها لنا عصر السماوات المفتوحة والثورات الصناعية المبهرة، فهو وحده الذي وفر لها البنية الخصبة المناسبة، وهو من يتحمل المسئولية عن المآسي التي سلبت الإنسان كرامته وإنسانيته.

---

(١) فروم : "الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق، ص ٤٦.

(*) وفي ذلك يقول جون لينون (١٩٤٠-١٩٨٠) نحن نعيش في عالم لا يخلو من مفارقة حيث علينا أن نمارس الحب في الخفاء، فيما العنف نمارسه في وضح النهار".

إن طبيعة النظام الصناعي الذي أصبح بيروقراطيا إجمالاً أكثر من أي وقت مضى، تقوده أهداف السلطة، الهيبة والمتعة، التي برمجت وفق مبادئ الحد الأعلى من التصنيع والحد الأدنى من الاحتكاك، ويرى فروم أن هذا النظام عبثي بامتياز، ومجرد من أيه مسحة إنسانيه، بحيث لم يعد الإنسان كما كان في القرن التاسع عشر الأقل تقدما هو حاكم هذه الآلات، بل أصبح محكومًا من أجلها[1] وهذه هي قمة المفارقة والتناقض، وكأننا لم نسيطر على الطبيعة لحساب الإنسان كما زعمنا، ولم نحرر الإنسان بكل هذه التقنية المتفوقة، بل وفرنا الظروف المناسبة لمزيد من التبعية والخضوع للآلة.

والسؤال الآن: ما الشكل الذي ينبغي أن يتخذه النظام الصناعي؟ هل هو البيروقراطية الصناعية التي يصبح فيها الفرد قليل الحيلة، وعديم الشأن، ولا يزيد عن كونه ترسًا تافهًا في عجله الآله الاجتماعية؟

أم الصناعه الإنسانية التي يجري التغلب فيها على الاغتراب والإحساس بالعجز بفعل حقيقة أن الفرد يشارك بفاعلية ومسئولية في العملية الاقتصادية والاجتماعية؟ إن فروم يؤكد علي النزعة الإنسانية الصناعية، والتي أدى غيابها إلى إلحاق الضرر الكبير بكافة القيم الإنسانية السامية فالسبب في بروز هذه اللذة المتطرفة، والنزعة الانانية في الثقافة المعاصرة يعود إلى انفصال الاقتصاد عن القيم و الأخلاق، وهو ما أدى تدريجيا إلى تشكيل أسلوب في الحياة قائم على الجشع والأنانية، هذه السمات التي يتسم بها العصر الصناعي هي التي خلقت انسانًا عاريًا من الهوية ودون كينونة حقيقية، وبعبارة أشد قسوة، خلقت إنسانًا مريضًا، داخل مجتمع مريض، وإذا كان النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي وطدته الرأسمالية قد انحرف عن المسار الصحيح، يقترح فروم ثورة أخلاقية جديدة تنتشل الإنسانية من كارثة باتت تهدد العالم على حد وصفه، وهذه الثورة الأخلاقية التي يدعو لها تتمثل في نظام جديد للأخلاق وللموقف من الطبيعة، يمكن من خلاله استعادة كينونة الإنسان التي اندحرت وانزوت لصالح التملك، وهذه الثورة التي يريدها فروم تعني دمج النزعة الإنسانية بكل شئ بما في ذلك الصناعة، إذ يجب ألا يكون الإنتاج الصناعي غاية في حد ذاته، بل مجرد وسيلة، فلا يمكن التغاضي عما سببته وسائل التكنولوجيا الجامحة من مخاطر على البيئة، والطبيعة، والإنسان، وجعلنا نقف على مشارف كارثة بشرية محققة، فإنه لا شئ في نظر فروم يمكن ان ينتشلنا من هذه الفوضى إلا بالتصالح مع الطبيعة عوضًا عن قهرها وتدميرها، والتصالح مع الإنسان عوضا عن تغريبه، ولن يتأتى هذا إلا عن طريق إعادة النظر في طبيعة المنظومة القيمية التي توجه نظرتنا إلى الكون والحياه.

---

(١) إريك فروم : كينونة الإنسان، مصدر سابق، ص ٦٣.

يقول فروم: أعتقد أنه يوجد في الوقت الحاضر خيار واحد أمام الإنسان العصري والبشرية قاطبة على سطح هذا الكوكب، وهو الاختيار بين البربرية وبين نهضة جديدة للإنسانية[1].

ولذلك يقترح فروم من أجل إحداث نهضة جديدة للإنسانية، إنشاء مجتمع جديد من شخصيات كاملة الإنسانية، أي مجتمع تتحقق فيه كينونة الإنسان كإنسان، لكن هذا كله يستلزم تضافر الجهد من أجل تأسيس علم جديد لقضايا الإنسان من شأنه أن يقدم حلولا للمشاكل العويصة التي تتخبط فيها الإنسانية ..

فالخلاص البشري من هذه الكارثة إنما يكون من خلال خلق مجتمع جديد يحرر الإنسان من الاغتراب، والسقوط، والعبودية للآله، وينبذ التملك، مجتمع يسعى لإحداث تغيير روحي واخلاقي.

إن صناعة هذا المجتمع الجديد، لا يمكن أن تنجح إلا عند إحداث تغيير أساسي في بنية الشخصية التي هي نواة المجتمع، وهذا التغيير يقوم بالدرجة الأولى على الانتقال من النمط التملكي الاستهلاكي الذي يشيئ الإنسان، إلى نمط الكينونة الذي يحافظ على المقومات الأصيلة التي تضمن استمرار الوجود السليم، والانحياز إلى خدمة قضايا الإنسان بالسيطرة على التكنولوجيا و ترشيدها،وليس بالسيطرة على الطبيعة وقهرها، وأن نعمل على خلق الشروط أو الظروف من أجل الإنسان المنتج، لا من أجل الإنسان المستهلك أو الإنسان التقني أو الإنسان الآلة.

(١) إريك فروم: "كينونة الإنسان"، مصدر سابق، ص ٣٣.

نتائج البحث:

العلاقات بين التملك والكينونة تمثل معضلة العصر ،وتعد من أكبر المفارقات في تاريخ الإنسانية، فالتملك سلاح ذو حدين، فهو من ناحية يوهم الإنسان بالسلام الداخلي وتحقيق الاكتفاء والاشباع، وفي الوقت نفسه يؤجج لدى الإنسان بواعث القلق والاغتراب والأنانية كما رأينا ذلك، حيث أدت التكنولوجيا المفرطة، والنزوع إلى التملك إلى رفع منسوب القلق والاغتراب عند الإنسان المعاصر، فقد أصبح الفرد مستلبا مغتربا في ظل مجتمع صناعي، فالهيمنة التي تفرضها التقنية على المجتمع الحديث والمعاصر هي هيمنة لا يمكن التحرر منها، لأنها تقدم تبريرا لغياب الحرية لدى الإنسان على اعتبار أن طريق التقدم ينتافي مع طريق التحرر(١) أي فقدان الإنسان لقيمته بفعل تعميم النظرة الأحادية للعقل، مما يؤدي إلى موضعة الإنسان وتشيؤه حسب تعبير ماركس وقد أكد هربرت ماركوزه هذه المسالة، واعتبر أن ظهور التقنية بدأ منذ اللحظة التي سادت فيها العلاقات بين الناس، وكذا الصراع من أجل الوجود واستغلال الإنسان والطبيعة، وفي الوقت نفسه خلقت هذه العقلانية للتقنية حالة ذهنية، ونمطًا من السلوك يفسران لنا مظاهر التدمير والقمع الموجه إلى الإنسان من طرف التكنولوجيا.

- الاعتقاد الذي قام عليه العصر الصناعي والذي ذهب إلى أن السعي لتحقيق المنفعة الفردية يؤدي إلى السعادة الفردية للجميع، قد ثبت فشله وكذبته الوقائع على الأرض، حيث اصبح العالم علي اتساعه وطنًا عابسًا مكفهرا يخلو من اللذة أو المتعة أو السعادة الفردية بالرغم من كل ما وصل إليه من تقنية وتقدم.
- التمركز حول اللذة التي يسببها التملك كما أسلفنا كانت فكرة مرفوضة عند كل الفلاسفة الكبار في الصين والهند والشرق الادني وأوروبا والذين رأوا أن في التخلي عن الأشياء قوة تفوق التمسك بها.
- الطبيعة لا يمكن قهرها، وكل محاولات الإنسان من أجل السيطرة عليها، جاءت بنتيجة عكسية، وأدت إلى استبدال سيطرة الطبيعة على الإنسان بسيطرة التكنولوجيا والآله التي صنعها الإنسان، وهذا هو جوهر المفارقة، فالإمعان في التكنولوجيا قد عزز الخضوع، وزاد من هيمنة الآله على الإنسان(*) وليس العكس فالهاجس الذي

---

(١) كمال بومنير : النظريه النقدية لمدرسه فرانكفورت ط١، الديمقراطية للعلوم، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٢٣.

* هناك مقولة تعبر عن هذه الحالة تقول عندما كان التليفون مقيدا بسلك كان الناس أحرارًا uand le telephone etait attaché avec un fil , les humains etaient libres

حرك وجدان إنسان القرن السابع عشر والثامن عشر كان هاجس الانتصار على الطبيعة وتسخيره لصالح الإنسان وهذا ما أكده أبو الفلسفة الحديثه ديكارت.

- إن التقنيه سلطة أو قوة في يد الإنسان الحديث غرضها الأساسي هو تملك الطبيعة والسيطرة عليها كما ذهب إلى ذلك هوركهايمر وأدورنو في كتابهما جدل التنوير حتى يكون الإنسان مالكا وسيدا على الطبيعة، ولن يتأتي هذا الانتصار إلا بالاعتماد على المعرفة العلمية، وتعميم الروح العلمية في جميع الحقول المعرفية، غير أن سلطة التقنية انتقلت من الإنسان للآلة التي باتت هي المتحكم الحقيقي في كل شئ، والمحرك الحقيقي لكل شئ.
- لقد اقتحمت التقنية حتى البيئة الطبيعية، حتى أصبح الإنسان شبيهًا بالكائن الاصطناعي يتحرك من تلقاء نفسه، وفي هذا السياق قال "جان ايلول" ليس هناك استقلال للانسان في وجود التقنية، لقد توصلنا إلى حقيقة هامة مؤداها أن تطور التقنية لم يساهم في رفاهية الإنسان وسعادته، فالنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت التي كان إريك فروم ينتمي لها ترى – في سياق نقد العقل التنويري – أن هناك انزلاقات وتناقضات أفقدت هذا العقل معقوليته، وكشفت زيف قيمه التي بشربها باسم التنوير والحداثة والتقدم، وفي النهاية كانت النتيجة مخالفة تماما لما بشر به من قيم إنسانية رفيعة وكونية كالحرية والديمقراطية والتقدم وإعاده الاعتبار للانسان، وسبب هذا التباعد، أو هذا الانسداد يرجع بقوة حسب هيدجر وفروم وبعض أقطاب مدرسة فرانكفورت إلى منجزات الحداثة وتطبيقاتها بصفه عامة، والتقنية على وجه الخصوص التي استبعدت الإنسان، وأصبح شبيه بالآلة التي تشتغل وفق برمجة معينة.
- أخيرًا فإن السعادة ليست في الامتلاك، وأننا لا نحتاج لأن نصبح أغنياء être riche لكي نكون سعداء être heureux لأن السعادة مجانية le Bonheur est gratuit، وإن الشخص الأكثر سعادة هو من يعطي، وليس الذي يمتلك.
- كما أن امتلاك كثير من الأشياء يفقدها قيمتها وجوهر وجودها، وفي ذلك يقول فروم: "إن امتلاك الزهرة يقتلها"[1]، وإننا لا يجب أن نبحث عن الحقيقه بتمزيق أوصال الكائن الحي.

(١) إريك فروم: "الإنسان بين الجوهر والمظهر "، مصدر سابق، ص٣٧.

- وهكذا قد يصبح الامتلاك نقمة إذا لم يأخذ الوجود فى الاعتبار، وليس المقصود بالمفارقة بين التملك والكينونة هو (إما أو)، إما أن نمتلك أو نوجد. ولكن المقصود هو إعلاء قيمة الوجود، وعدم إسقاطه لحساب أى شهوة كانت، وعدم إهدار الطاقات العبثية فى الركض وراء امتلاك يحولنا إلى أشياء حية، وينسينا وجودنا الإنساني إلى الأبد.